أوراق من ندوة الرعاية الطبية للشرق الأوسط (٢)

علماء الدين يطرحون هذه التساؤلات :

هل يملك الانسان بدنه على نحو يصح له التصرف ببعض أجزائه بيعا أو هبة ؟!

ومتى يتحقق الموت ؟ هل بموت القلب أو بموت الدماغ ؟!

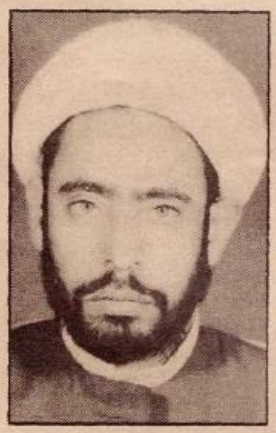

• الشيخ سليمان المدني •

الشيخ سليمان المدني :

الحل الذي نريده لهذه القضايا يجب أن يكون حلا اسلاميا عاما وقاطعا وليس مذهبيا ، والاجتهادات الشخصية غير مقبولة البتة ..

● بحث الشيخ سليمان المدني ●

ان الانسان ومن فجر تاريخه تواجهه تحديات مختلفة في الحياة تجعله يشعر دائما انه مضايق ومحاصر بالمشاكل التي تحتاج الى حل ، ومن اجل ذلك فهو دائب الحركة والفكر لايجاد الحلول لهذه التحديات والمشاكل .

وقد نجح الانسان في حل كثير من تحديات الحياة ومشاكل العيش عن طريق البحث العلمي بحيث اصبح العيش فوق ظهر الارض اكثر سهولة ويسرا مما كان عليه في الايام الخالية ، لكن مشكلة الانسان الكبرى ان حلوله لهذه المشاكل في الا غلب تولد مشاكل جديدة ربما تكون اعمق واخطر من المشكلة المحلولة .

اليك مثلا مشكلة المواصلات فقد بلغ فيها الانسان شأوا كبيرا ، بحيث اصبحت الكرة الارضية وكانها بلد واحد بل مدينة واحدة . بيد ان حل مشكلة التنقل السريع وتسهيل وسائل النقل ادى الى بروز مشكلات جديدة قد لا تكون لها علاقة مباشرة بالوسائل المبتكرة لحل هذه المشكلة ، هذه المشاكل اكثر خطورة من مشكلة عسر الاتصالات في الازمنة السابقة ، من ذلك التلوث البيئي الذي اصبح يهدد سكان الكوكب جميعا ، كما اوجد انماطا جديدة من السلوك الاجتماعي نتج عنها مشكلات جديدة لافي الفلسفة والاخلاق والقانون فحسب بل في الاقتصاد والسياسة والامن ايضا ، كما تسبب في ايجاد الارتباك في المعايير الدينية والحضارية ايضا .

فحياة الانسان فوق ظهر هذا الكوكب اشبه بالقصة المحبوكة التي لا تحل عقدة من عقدها الا ويتولد منه مجموعة جديدة من العقد تستدعي بدورها الحلول . والفرق بين القصة المكتوبة والحياة الحقيقية ان القصة لها نهاية محددة معروفة وفي الغالب يعمد كاتبها الى حل العقدة التي بحلها تحل جميع عقد تلك القصة ، اما حياة الانسان فليس لها امد محدد منظور ، اضافة الى ما اعتاده الانسان من عملية التوريث الاجتماعي لابنائه واحفاده ، فهو لا يورثهم المكاسب الحضارية والدينية والعلمية وحسب بل هو ايضا يترك لهم المشاكل والعقد التي اوجدها وعجز عن الوفاء بمستحقاتها ليقوموا بدفع ضرائبها .

وتمتاز التحديات التي تواجه جيلنا الراهن عما كانت تواجهه الاجيال السابقة من تحديات بكثرتها وتنوعها اضافة الى عمقها وحدة الشعور بوقعها وضغطها .

نضرب مثلا على ذلك بالبحث العلمي وقد مارسه الانسان منذ اقدم العصور لكنه لم يثر للانسان مشكلات دينية او خلقية او حضارية ، ذلك ان البحث العلمي كان يعتمد التحليل العقلي والاستنباط المنطقي ، وهذا لايثير مخاطر من ناحية خلقية او عقائدية او تشريعية فلك ان تحلل ما تشاء وبالاسلوب الذي تشاء طالما انك لم تمس الواقع الخارجي الذي يشاركك غيرك فيه ، واذا كان ثمة من خطر فهو في جهرك بما توصلت له من اجتهاد تخالف به ما كان سائدا من آراء حول ذلك الموضوع .

اما وقد تبدلت الاساليب العلمية من الاعتماد على العقل والاستنباط الى الاعتماد على التجربة والاستقراء ، وتغيرت وسائل العلم وادوات البحث تبعا لذلك ، فقد نتجت عن ذلك عدت مشاكل دينية وخلقية وتشريعية بل وسياسية احيانا .

ففي علم الطب مثلا بفرعيه الجسمي والنفسي لا تكون مادة التجربة فيه من المواد الجامدة التي قامت عقائد الانسان وافكاره على إعتبارها اقل قيمة من ذوات الارواح ، فالنتائج التي يتوصل اليها في هذا العلم يجب ان تكون صالحة لاستفادة الانسان وملائمة له ، فلابد ان يكون موضوع التجربة والبحث هو الانسان ذاته .

والانسان هو اعلى الموجودات على الارض قيمة - على الاقل في نظر الانسان ذاته - فكيف يصح ان تجرى عليه التجارب وان بحجه البحث العلمي او بحجة السعي من اجل سعادته وتخفيف آلامه .

والخلاف في موضوع اجراء التجارب على الانسان من اجل الاغراض العلمية او تشريحه بعد وفاته لهذا الغرض بين الفقهاء لا يزال لم يحسم بل لا يرجى له ان يحسم الا بعد فترة طويلة .

والمشكلات المثارة حاليا في العالم عامة وفي منطقتنا بل بلدنا بصورة خاصة مثل مشكلة التلقيح الصناعي ومشكلة نقل الاعضاء انما هي دليل من الادلة على ما نعيشه من التحديات .

والغريب ان الاهتمام العام بهاتين المشكلتين يكاد يفوق الاهتمام بمرض السرطان ومرض فقد المقاومة المكتسب مع خطورتهما ، ومن ينظر في الصحف اليومية والاسبوعية التي تصدر في بلدنا يجد ان الموضوعات التي تنشر عن هاتين المشكلتين قد طغتا على اي موضوع حياتي خطير . فهل كان هناك اهتمام جماهيري حقيقي بهاتين المشكلتين اكثر من غيرها ام انه يراد ايجاد هذا الاهتمام العام عن قصد ؟؟ .

وعلى الرغم من ان بعض العلماء والفقهاء والاطباء قد تكلموا عن هاتين المشكلتين بل واصدر بعضهم الفتاوى ان بالحلية او الحرمة او التفضيل بين حالة وحالة ، الا ان كل ما قرأته للمعاصرين ليس اكثر من اجتهادات فردية في معظم جوانبه تقوم على التحليل المنطقي او تعتمد الادلة العقلية التي ليست في حقيقتها الا تأويلا وتبريرا لفكرة سائدة يدعى لها العلمية ولا اريد ان اتعجل الاجابة في الموضوعين المشار اليهما في هذا الاجتماع طالما انهما لم يحصلا على نصيب كاف من الدراسة العلمية والاهتمام الفقهي المعتمد ، وفي نظري ان هذين الموضوعين وبخاصة الثاني منهما - موضوع نقل الاعضاء - لا يزال في طفولته ، على الرغم من ان الفقهاء ومنذ القرن الثالث الهجري قد تكلموا عن الترقيع باجزاء الحيوان والانسان ، لكن بحثهم لهذا الموضوع جاء بحثا عرضيا في كتب الطهارة لا اصليا يراد منه التوصل الى حكم شرعي لاجراء العملية ذاتها .

هذا بالاضافة الى ان السؤال المثار في قضية نقل الاعضاء والترقيع بها لم يكن للسلوك الفردي وانما للتقنين والتشريع في جواز الايصاء بها .

والجواب على هذه المسألة يستدعي الاجابة على سؤالين مهمين الاول منهما هو عن ملكية الانسان لجسمه فهل يملك الانسان بدنه على نحو يصح له التصرف المالكي فيه فقها مثلا : بيع جزء منه او هبته للاغراض العقلائية ام ليس له اكثر من استعماله وبالطرق المتعارفة التي لا تؤدي الى اتلافه والاضرار به ؟؟

وثانيهما اذا كان يجوز للانسان التنازل عن جزء من جسمه - ولو لاستغنائه عنه اما لكون زائد عن الخلقة المتعارفة كما لو كانت له يد زائدة او كلية ثالثة - او استغنى عنه بالموت فيجوز له الوصية به بعد موته لشخص معين او لعموم المحتاجين الى ذلك الجزء لو فرضنا جواز هذا يبقى الموضوع مع ذلك متوقفا على الاجابة على سؤال متى يتحقق الموت اهو بموت القلب او بموت الدماغ ؟؟

والخلاف فيه بين الشرعيين والاطباء لم يحسم بعد وعلى الرغم من ان بعض المفسرين ممن لهم سمعة علمية حاول مناصرة قول الاطباء الا انه لم يات بدليل مقنع فضلا من ان يكون قاطعا .

ان الحل الذي نريده للمشكلة يجب ان يكون حلا اسلاميا عاما وقاطعا في الموضوع ، ولذلك فالا جتهادات الشخصية في موضوعنا غير مقبولة البتة ذلك انها لن تقدم للامة شيئا يريح ضميرها اضافة الى ما في ذلك من مخالفات لمقررات الشريعة عن طريق التاويلات والتفسيرات التي لا تستند الى ركيزة علمية مسلم بها ومقبولة عند الجميع .

الحل الذي نريده لهذه المشكلات يجب ان لا يكون حلا مذهبيا او مبنائيا وانما يقوم على الصريح من الكتاب والسنة المطهرة المسلم بها بين كافة المسلمين حتى يصح ان يجعل ذلك شريعة وقانونا لكافة المسلمين .

من اجل هذا ادعو جميع العلماء سواء في ذلك علماء الامصار او الفقهاء الكبار الذين هم المرجع الاعلى لهذه الامة ان يبذلوا جهدا مشتركا في دراسة نصوص الكتاب والسنة وان يبرزوا النصوص المتعلقة بالموضوع مع ما تحتاج اليه من طرق الجمع بين مختلفاتها وبيان القرائن الدالة على ثبوتها حتى يمكن ان نصل الى حل قاطع ومتفق عليه يصح ان يكون اساسا للسلوك العلمي والتشريعي لهذه الامة .

وفي الختام اسال الله سبحانه ان يوفق العاملين لخدمة الدين والامة الى ما فيه الهدى والصلاح انه سميع مجيب .